

الإطار المحايث في فلسفة تشارلز تايلور

The Immanent Frame in Charles Taylor philosophy

الحسين زين العابدين العايب*، جامعة الجزائر 2

مخبر: الدراسات الفلسفية والأكسيولوجية

zinelabidine.laibelhocine@univ-alger.dz

حميدة هرباجي، جامعة الجزائر 2

herbadjihamida4@gmail.com

تاريخ القبول: 2025/05/18

تاريخ الاستلام: 2025/04/29

ملخص:

تستكشف هذه الورقة مفهوم الإطار المحايث لتشارلز تايلور، ويعتبر أداة تحليلية أساسية لفهم الحداثة العلمانية. يشير الإطار المحايث إلى الحالة الثقافية التي يفرض فيها الأفراد العالم باعتباره مترابطاً وملئاً بالمعنى دون الرجوع إلى العالي. ضمن هذا الإطار، لم يعد الإيمان أمراً مفروضاً منه، بل خياراً شخصياً يتشكل بفعل التعددية واستقلالية الفرد والعقلانية الحديثة. يقدم تايلور مفهوم الذات المحدّنة، وهي الذات الحديثة المغلقة التي لا تتأثر بالقوى الروحية الخارجية. وبينما تحول العلمنة المجالات العامة والخاصة، يؤكد تايلور أن العلمانية لا تلغي الدين بالكامل، بل تعيد تشكيل شروط الإيمان. يُجسد الإطار المحايث تعقيدات الإيمان والهوية والمعنى في عصر أصبح فيه العالي خياراً بدلاً من فرضية مفروغ منها.

*المؤلف المراسل

الإطار المحايث في فلسفة تشارلز..... العايب حسين زين العابدين وهرياجي حميدة

الكلمات المفتاحية: العلمنة - الإطار المحايث - الذات المحصنة - التعالي



Abstract:

This paper explores Charles Taylor's concept of the immanent frame, a key analytical tool in understanding secular modernity. The immanent frame describes a cultural condition in which individuals interpret the world as coherent and meaningful without invoking transcendence. Within this framework, belief is no longer a default position but a conscious, personal option shaped by pluralism, individual autonomy, and modern rationality. Taylor introduces the idea of the buffered self—a self-contained subjectivity characteristic of modern identity, resistant to external spiritual influence. While secularization transforms public and private spheres, Taylor argues it does not eliminate religion but reconfigures the conditions of belief. The immanent frame thus encapsulates the complexities of faith, identity, and meaning in an age where transcendence is optional rather than assumed

Keywords: Secularization ,Immanent Frame Buffered Self, Transcendence. □

مقدمة:

يشير مفهوم "الإطار المحايث (The Immanent Frame)" ، كما قدمه تشارلز تايلور Charles Taylor في كتابه عصر العلمنة (A Secular Age, 2007)، إلى السياق الثقافي الحديث الذي يُفهم فيه العالم على أنه نظام مكتفٍ بذاته، ويمكن تفسيره وفهمه دون الحاجة إلى الرجوع إلى ما هو متعالٍ (transcendence). في هذا الإطار، لم يعد الإيمان بالإله هو الفرضية الأساسية أو العادية، بل أصبح خياراً بين عدة خيارات، وهو ما يعكس تحولاً جذرياً في شروط الإيمان واللاإيمان في المجتمعات المعاصرة. لا ينكر هذا الإطار وجود الإله بالضرورة، لكنه يعيد تشكيل الرؤية للعالم بحيث يُمكن إدراك المعنى، والأخلاق، والغاية الإنسانية ضمن نطاق العالم الطبيعي وحده، دون تجاوزاته الميتافيزيقية.

في هذا السياق، ينشأ الإنسان الحديث ما يسميه تايلور بـ "الذات المحصنة (buffered self)" ، أي كياناً مغلقاً مستقلاً، ولا يصبح منفتحاً على قوى خارجية روحية كما كان الحال في العصور السابقة. ويرتبط ظهور هذه

الإطار المحايث في فلسفة تشارلز العايب حسين زين العايبين وهرياجي حميدة

الذات المحصنة بمراحل تاريخية مفصلية مثل عصر التنوير (Enlightenment) والثورة العلمية، اللذين ساهما في نشر عقلانية ترفض التفسيرات الخارقة وتُعلي من قيمة الفرد والعقل والتجربة.

لقد أدى هذا التحول إلى نشوء فضاء عام علماني، حيث لم تعد المعتقدات الدينية مسلّمة أو مهيمنة، بل أصبحت موضع تساؤل ونقاش، مما أوجد ما يسميه تايلور بـ "الشروط الجديدة للإيمان". ووفقاً لهذه الشروط، أصبح الإيمان فعلاً ذاتياً واختياراً واعياً، لا وراثاً اجتماعية أو تقليداً جماعياً كما في السابق. سنحاول طرح إشكالية أساسية في سياق هذا البحث: فهل يقوم الإطار المحايث بإقصاء الدين بالكامل من الحياة الإنسانية؟ وكيف يحاول هذا الإطار من خلال طرحه لرؤيته تشكيل الحدود التي يفهم بها الإنسان كونه دون الحاجة إلى الرؤية المتعالية للكون؟

أولاً / التحولات في مفاهيم العلمنة

1- تشير العلمنة، كمفهوم اجتماعي، إلى تراجع للسلطة الدينية وتأثيرها في الحياة الاجتماعية، وخاصة في المجتمعات الحديثة. وقد قدم علماء الاجتماع الكلاسيكيين مثل ماكس فيبر وإميل دوركايم، وجهات نظر متميزة ولكنها مترابطة في الآن نفسه حول هذه العملية. وتشكل تحليلاتهم أساس نظرية العلمنة، التي تسعى إلى شرح كيف يساهم التحديث والترشيد والتميز الاجتماعي في دور الدين في الحياة العامة والخاصة، وفي سياق الحديث عن مفهوم العلمنة عند تشارلز تايلور؛ فإننا سنقتصر على رؤية ماكس فيبر في هذا الصدد، نظراً لكونه حجر زاوية في تطوير تايلور لمفهوم العلمنة الخاص به.

إذا أردنا نفهم رؤية تايلور للعلمنة باعتباره من أكثر الدارسين لمفهومها عبر زوايا متعددة؛ فإن ذلك يستدعي توضيح ما ليست عليه العلمنة في فكره. على عكس بعض التأويلات التي تصور العلمنة على أنها عملية كونية خطية وحتمية، يرفض فيبر فكرة أن العلمنة تتبع منطقاً تجريدياً ذاتياً مستقلاً عن السياقات الاجتماعية والتاريخية المحددة. وبدلاً من ذلك، يرى أن العلمنة ليست قوة مستقلة، بل هي نتاج ظروف اقتصادية وسياسية وثقافية فريدة تختلف من

مجتمع إلى آخر، ولا تتبع مساراً ثابتاً أو متوقعاً مسبقاً. علاوة على ذلك، لا ينظر فيبر إلى العلمنة باعتبارها توجهاً تطورياً أو دورياً، أي أنه لا يفترض أن المجتمعات تتحرك بشكل حتمي نحو التحديث العلماني أو أنها ستعود إلى الهيمنة الدينية وفق أنماط دورية ثابتة (Hughey, 1979, p. 85).

تعتمد العديد من النظريات العلمانية على إعادة بناء تاريخية افتراضية تتجاهل تعقيد الديناميكيات الاجتماعية في كل سياق تاريخي معين. من منظور فيبر، فإن مثل هذا النهج مضلل لأن التاريخ ليس نظاماً مغلقاً محكوماً بقوانين صارمة، بل هو نتاج عوامل متداخلة ومتغيرة وغير قابلة للتنبؤ أحياناً. نقطة أخرى جوهرية في تحليل فيبر هي رفضه لفكرة أن العلمنة تؤدي بالضرورة إلى القضاء التام على الدين. وعلى عكس النظريات التي ترى الحداثة باعتبارها مساراً حتمياً نحو نزع السحر الكامل عن العالم، يعترف فيبر بأن عودة الدين ممكنة دائماً. فبما أن التاريخ ليس عملية تيلولوجية (غائية) محددة مسبقاً، فإن لحظات التجدد الديني قد تحدث في أي زمان ومكان، وفقاً للظروف الثقافية والاجتماعية السائدة. وهذا يعني أن العلمنة ليست عملية لا رجعة فيها ولا تتبع نمطاً موحداً، بل تتجلى بطرق متنوعة وقد تتعايش مع حركات إحياء ديني داخل المجتمع الحديث. في النهاية، يقدم فيبر تصوراً مركباً وغير حتمي للعلمنة، يبتعد عن النماذج المبسطة التي تفترض تراجع الدين بصورة حتمية. فبدلاً من اعتبار العلمنة قوة ذاتية الحركة، يراها فيبر نتاجاً لتحولات تاريخية معينة، مما يعني أنها قد تتخذ أشكالاً متعددة ومتناقضة أحياناً، وفقاً للسياقات المختلفة التي تتطور فيها . (Hughey, 1979, pp. 89-90).

في سياق هذا الفهم للعلمنة، يتجه تشارلز تايلور من جهة أخرى، إلى أن نتيجة عقلنة القيم الدينية قد أدت إلى تفكك داخلي على مستوى الرؤية المتعالية للعالم وهو ما يُعتبر السبب الرئيسي الذي أدى تشكّل مفهوم العلمنة ككيان معرفي مستقل، وهذا ما أدى إلى توتر دائم بين التقاليد الدينية والعالم المحايث. ومع خضوع المعتقدات والقيم الدينية، إلى غيرها من "أنماط الحياة"، لعقلنة داخلية وفكرية، أصبحت هذه القيم محكومة بالتفكير المنهجي والحاجة إلى تفسير المعاناة والتفاوت الاجتماعي. وقد أدت هذه العقلنة إلى تحول في كيفية

الإطار المحايث في فلسفة تشارلز العايب حسين زين العايبين وهرياجي حميدة

فهم القيم الدينية والعلمانية، حيث لم تعد تنظر إليها باعتبارها مجرد تجليات للإرادة الإلهية، بل أصبحت مفاهيم ذات قيمة جوهرية مستقلة عن السلطة الخارقة للطبيعة (تايلور، 2019، صفحة 768).

إن هذا التحول الفكري حسب تايلور قد أسس لولادة فهم جديد للعالم، حيث لم يعد المجال الديني والعلمي متعاشين بشكل متناغم، بل نشأ تناقض حاد بين القيم الأخلاقية التي تفرضها التقاليد الدينية والمطالب البراغماتية للحياة الزمنية. وكانت النتيجة هي نشوء مجالات فكرية وعملية متميزة ومتضاربة في كثير من الأحيان، حيث لم تعد المعايير الدينية ملزمة عالمياً، بل أصبحت تنافس القيم الزمنية في تحديد الغاية الإنسانية والسلوك الأخلاقي. ومن أبرز نتائج هذه العملية، ظهور حالة دائمة من التوتر بين الأديان النبوية والخلابية والعالم الزمني. وينشأ هذا التوتر لأن الرؤى الدينية تتطلب التزامات نهائية، غالباً ما تتعارض مع أولويات النظام الزمني، مثل العقلانية الاقتصادية، والسلطة السياسية، أو البحث العلمي. وعلى عكس الفترات السابقة التي كان فيها المجال الديني والعلمي أكثر تكاملاً، فإن العصر الحديث يشهد تفاوضاً مستمراً حول مكانة الدين داخل بنية اجتماعية متعددة وعقلانية. ويشير تايلور إلى أن هذا التوتر ليس عرضياً بل هو سمة جوهرية ودائمة للحدث، ناتجة عن القوى البنوية التي تعيد تشكيل العلاقة بين الحياة الدينية والعلمانية (Hughey, 1979, p. 85).

2- يقدم تشارلز تايلور مقارنة تنقيحية لمفهوم العلمنة، حيث يتجاوز النموذج الأرثوذكسي التقليدي دون أن يتبنى بالكامل الموقف المضاد للأرثوذكسية. فعلى عكس منظري العلمنة الكلاسيكيين الذين ينظرون إلى الحدث باعتبارها مساراً خطياً وحتمياً لانحسار الدين، لا يتبنى تايلور هذه الرؤية الحتمية بشكل كامل. ومع ذلك، فهو لا ينحاز أيضاً إلى الموقف المضاد للأرثوذكسية الذي يرفض فكرة العلمنة كإطار تحليلي ذي معنى. وبدلاً من ذلك، يسعى تايلور إلى إعادة صياغة النقاش، متجاوزاً الطرح التقليدي الذي يقصر العلمنة على ثنائية تراجع الدين مقابل استمراريته.

ما يجعل مقارنة تايلور فريدة؛ هو أنها لا تكتفي فقط بإعادة تفسير البيانات السوسيولوجية أو تعديل الاستنتاجات السابقة، بل تسعى إلى تقديم إطار فكري جديد يُدمج بين علم الاجتماع والاقتصاد، السياسة والفلسفة، وذلك لفهم أعمق لمسألة التحقق الإنساني في العصر الحديث. فمقارنته ليست مجرد توفيق بين وجهات النظر المتباينة، وإنما محاولة لإعادة التفكير في العلمنة باعتبارها عملية متعددة الأبعاد لا تؤدي إلى تآكل الإيمان الديني فحسب، بل تعيد تشكيله بطرق مختلفة، وتعيد ترتيب المجالات الأساسية في الحياة الإنسانية: الاقتصاد والمجال العام، والشعب ذو السيادة (بيلا، 2019، الصفحات 52-53).

ويستند تحليل تايلور إلى مجموعة واسعة من الإسهامات الفكرية التي يوظفها لبناء رؤية أكثر شمولاً حول العلمنة. فبدلاً من اعتبارها مجرد تراجع للدين، يرى تايلور أنها تحول في شروط الاعتقاد، حيث لم يعد الإيمان الديني هو الافتراض المسبق والمهيمن، بل أصبح خياراً من بين عدة خيارات داخل عالم محايد (المحايد) تسوده التعددية. (Taylor, 2007, p. 03) ومن خلال هذا المنظور، يتجاوز تايلور التصورات التقليدية التي تقابل بين الدين والعلمانية في ثنائية متضادة، ليقدم تحليلاً أكثر تعقيداً يوضح كيف تتعايش الرؤى الدينية والزمنية، وكيف تستمر في التفاعل والتطور داخل التجربة الإنسانية المعاصرة.

وفقاً لتشارلز تايلور، فإن مفهوم العلمنة معقد بطبيعته وإشكالي، ويرجع ذلك أساساً إلى أن تعريفه ليس ثابتاً، بل يعتمد على ثلاثة محاور مرجعية متغيرة. أولاً، يرتبط مفهوم العلمنة بتصوّر معين عن الدين، وهو تصوّر يختلف عبر السياقات التاريخية والثقافية، حيث إن ما يُعتبر "ديناً" في فترة زمنية أو مجتمع معين قد لا يتطابق مع تعريفه في سياقات أخرى. ثانياً، يتطلب أي نقاش حول العلمنة منظوراً تاريخياً مقارناً، مما يعني أن الباحثين بحاجة إلى تحديد أي مشهد ديني تاريخي سيتم اتخاذه كنقطة مرجعية لتقييم التغيرات المعاصرة. أخيراً، تُدرس العلمنة دائماً ضمن سياق جغرافي معين، نظراً لأن تحول الدين لا يحدث بطريقة موحدة في جميع المجتمعات (Tylor, 2007, p. 768).

الإطار المحايث في فلسفة تشارلز العايب حسين زين العابدين وهرياجي حميدة

يؤكد تايلور أن المحور الثالث، وهو السياق الجغرافي، يستحق اهتماماً خاصاً، لأن العلمنة لا تتطور بشكل متجانس أو عالمي. بل يشير إلى أن هناك تراجعاً في الدين حدث تحديداً في العالم الغربي، لا سيما في أوروبا وأمريكا الشمالية. ومع ذلك، فإن هذا لا يعني أن التدين قد اختفى تماماً، بل بالأحرى أن دوره وتعبيراته قد أعيد تشكيلها. وهذا التمييز جوهرى في طرح تايلور، حيث إنه لا يختزل العلمنة في مجرد انحسار الإيمان، بل يراها على أنها تحول في البنية التي يتم من خلالها تشكيل الإيمان واللاإيمان داخل المجتمع (Tylor, 2007, p. 01).

ثانياً / الإطار المحايث بين الأصول والمفهوم

1- يجادل تشارلز تايلور بأن الإيمان في عصرنا الحديث يتشكل ضمن ما يسميه "الإطار المحايث"، وهو تصور للعالم يُفهم فيه الوجود دون إحالة إلى البعد المتعالي، وذلك نتيجة لعملية نزع السحر عن العالم وصعود العلوم الطبيعية الحديثة. يُمثل هذا الإطار نظاماً مكثفياً بذاته، حيث يصبح بإمكان الأفراد تأويل الواقع دون الحاجة إلى تفسيرات دينية أو روحانية. ويؤكد تايلور أن هذا التحول مرتبط بشكل عميق بفهم الإنسان لذاته، إذ بات يُنظر إلى الفرد باعتباره "ذاتاً محصنة"، تتفاعل مع الزمن المحايث عبر العقل والأدوات الفعالة، بعيداً عن أي إحالة إلى المطلق. علاوة على ذلك، يرى أن هذا الإطار قد أضفى عليه طابع الموضوعية، بحيث يُدرك كنظام شامل يتضمن أبعاداً كونية واجتماعية وأخلاقية، تُفهم جميعها بوصفها أنظمة لا شخصية، منفصلة عن أي ترتيب إلهي متعال. إن هذا التحول يشكل نقطة مفصلية في كيفية اختبار الإيمان والعلمنة في العالم الحديث (Taylor, 2007, p. 543).

يحلل تشارلز تايلور الإطار المحايث باعتباره هيكلًا لا يُفهم على أنه مغلق بطبيعته أمام البعد المتعالي، بل مائل نحو نظام غير شخصي. فعلى الرغم من أن هذا الإطار يميل إلى تفضيل الربوبية على المسيحية الأرثوذكسية، وإعطاء الأولوية للحياة العلمي على الممارسات الروحية مثل الصلاة، إلا أنه لا يفرض بالضرورة رؤية إلحادية أو دينية محددة. بل إن الأفراد الذين يعيشون ضمن هذا الإطار يختبرون ازدواجية في التوجه: فمن جهة، هناك تأكيد على واقع مغلق

مكتفٍ بذاته، ومن جهة أخرى، هناك جاذبية مستمرة نحو البعد المتعالي. يرى تايلور أن العيش داخل الإطار المحايث لا يحدد مسبقاً موقف الإنسان تجاه الإيمان أو الإلحاد. فبإمكان الأفراد أن يتبنوا قراءة "مغلقة"، تتبنى الإنسانية الحصرية وتتكر أي بعد متعالٍ، أو قراءة "مفتوحة"، تفسح المجال لإمكانية وجود واقع يتجاوز المحايث. وهذا يعني أن الحداثة، رغم أنها جعلت الإيمان خياراً غير بديهي، لم تلغه تماماً، بل تركت الأمر مفتوحاً أمام الأفراد ليحددوا موقفهم وفقاً للطريقة التي يتعاملون بها مع التوتر بين المحايث والمتعالي في تجربتهم الخاصة (Taylor, 2007, pp. 555-556).

من جهة أخرى يدرك تايلور أن وصف التغيير التاريخي يصطدم مباشرة بمشكلة الميل البشري الطبيعي لقراءة وتلقي الثقافات الماضية عن طريق عدسات تفسيرية وتحليلية تنتمي للحاضر، وهذا ما يؤدي إلى التشويه وسوء الفهم. لذلك، يشجع تايلور في مساعدة القارئ على فهم التغيير الجذري الذي مس شروط الاعتقاد لثقافة ما قبل الحداثة في أواخر العالم المسيحي، إلى شروط الاعتقاد الحداثية التي طاولها التغيير. ويتم هذا عبر مناقشة "أفكارهم" و"تصوراتهم" و"معتقداتهم" أو مقترحاتهم نسبياً (Taylor, 2007, p. 30).

يقدم تايلور كلمتين وصفيتين مفيدتين للتمييز بين مزاج كلتا الثقافتين، ولا سيما مواقع المعنى الخاصة بكل منهما. كانت عقلية ما قبل الحداثة "مَسَامِيَّة" *"porous"*، وكان موضع معناها مفتوحاً ومتعدد الاتجاهات. لا يميز الموضوع المَسَامِي بوضوح الحدود بين العقل والعالم ومع ذلك، فهو "عرضة لعالم من الأرواح والقوى" (Taylor, 2007, p. 27). بمعنى آخر، لم يكن للعقلية المسحورة أو المَسَامِيّة حدود، أو فقط حدود "غامضة". من ناحية أخرى، فإن العقلية الحداثية "عازلة"، وتموضع الأفكار والمعاني يكون "في العقول فقط ... كانت الحدود الواضحة التي نرسمها بين العقل والعالم أكثر ضبابية من الفهم السابق" (Taylor, 2007, p. 35).

يحلل تشارلز تايلور تأثير النופا من خلال استكشاف التحول الثقافي والفلسفي من الربوبية إلى الإنسانية الحصرية، خاصةً كما اختبرته النخبة

الإطار المحايث في فلسفة تشارلز العايب حسين زين العايبين وهرياجي حميدة

الفكرية في القرن الثامن عشر. يضع تايلور هذا التحول في سياق ظهور الذات المحصنة، وهو مفهوم جوهرى في الهوية العلمانية الحديثة. على النقيض من الفهم السابق للذات المسامية، التي كانت ترى الفكر والطبيعة متداخلين عبر الأطر الروحية والسحرية، تمثل الذات المحصنة فرداً منفصلاً عن العالم، قادراً على تفسير الوجود دون إحالة إلى البعد المتعالى. يرى تايلور أن صعود الذات المحصنة كان ظاهرة ذات أبعاد موضوعية وذاتية. فمن الناحية الموضوعية، ظهر هذا المفهوم في عالم منزوع السحر، حيث لم يعد يُنظر إلى الكون على أنه مليء بالأرواح والقوى، بل تم فهمه في إطار ميكانيكي.

كما أن تراجع مفهوم "الأزمة العليا" واختفاء الطقوس الجماعية مثل الكرنفال عكساً هذا التحول الثقافى الواسع. أما من الناحية الذاتية، فقد تعزز هذا التحول من خلال تغيرات في الهوية، مثل صعود العقل المفصول، الذي بات يعتمد على التفكير المجرد بعيداً عن التفسيرات الروحية أو المتعالية. إضافة إلى ذلك، ساهمت ممارسات تشكيل الذات المنضبطة — بما في ذلك إعادة هيكلة العلاقات الحميمة وفقاً لنماذج أكثر تقييداً — في تعزيز هذا التحول. يستند تايلور إلى مفهوم العملية المدنية لنوربرت إلياس ليظهر كيف ساعدت هذه التغيرات في صياغة تجربة فردية أكثر انضباطاً وانطوائية. في المجمل، يقدم تايلور التأثير النופا باعتباره عملية تاريخية أدت إلى هيمنة الذات المحصنة، مما يمثل انتقالاً إلى عالم يُستمد فيه المعنى من النظام البشرى المكتفى بذاته، بدلاً من الاعتماد على المرجعيات المتعالية (Taylor, 2007, p. 300).

يقوم تحليل تشارلز تايلور للهيكل المغلقة بانتقاد نظريات العلمنة السائدة التي تفترض تراجع الدين بشكل حتمي. ويؤكد أن هذه النظريات تعمل ضمن إطار سردي صارم — وهو ما يسميه "الطابق السفلي" — يقوم على افتراض أساسي بأن الحداثة تؤدي بالضرورة إلى تجاوز الإيمان الدينى أو تهميشه. ويشير تايلور إلى أن هذا السرد المهيمن يشكل الكثير من نظريات العلمنة من خلال تقديم تصور مبسط وخطي عن تراجع الدين. وعلى النقيض من ذلك، يقترح تايلور فهماً أكثر تعقيداً للعلمنة، لا سيما في المجتمعات الغربية. فهو يرى أن التحول الحداثى لا يتمثل فقط في تراجع الدين، بل في تغيير عميق في كل من البنى التي

نعيش ضمنها (العلمية، الاجتماعية، والتكنولوجية) والطريقة التي نتخيل بها هذه البنى. ويجسد هذا التحول ما يسميه "الإطار المحايث"، وهو رؤية للعالم تُصوره كمنظومة طبيعية مكتفية بذاتها لا تستلزم الرجوع إلى البعد المتعالي. ومع ذلك، من المهم الإشارة إلى أن هذا الإطار لا يفرض بالضرورة تأويلاً مغلقاً أو علمانياً بشكل صارم، بل يمكن "توجيهه" بطرق مختلفة، مما يُبقي إمكانية استدعاء البعد المتعالي كضرورة تفسيرية أو روحية قائمة. كما يسلط تايلور الضوء على التأثير المعقد والمستمر لهذه التحولات على الحياة الدينية. فبينما أدت الحداثة إلى زعزعة الهياكل الدينية التقليدية وتآكل أشكال الإيمان السائدة سابقاً، إلا أن ذلك لم يؤد إلى اختفاء الدين، بل إلى ظهور أشكال جديدة من الروحانية والإيمان تعكس عملية إعادة تشكيل مستمرة. وقد جعل هذا التحول الهوية الدينية في الغرب أكثر تفككاً وسيولة من أي وقت مضى، حيث بات الأفراد والأجيال يغيرون مواقفهم الروحية بدرجات غير مسبوقة. وبهذا، فإن العلمنة ليست مجرد مسار خطي لانحسار الدين، بل إعادة تشكيل ديناميكية ومتعددة الأبعاد للإيمان في ظل الحداثة (Taylor, 2007, p. 594).

2- وفقاً لتايلور، لم تستوعب النزعة العلمانية الصارمة مفهوم العلمنة بقدر ما سعت إلى إقصاء إمكانية التعالي من الفضاء الفكري الحديث. ومع ذلك، فإن هذا الإقصاء يظل غير مكتمل. ففي لحظات الافتتان الجمالي أو الاستدعاءات الوجودية العابرة، حتى أكثر العلمانيين التزاماً قد يجد نفسه مضغوطاً بشعور بوجود شيء أعمق من الأفق المحايث - إحساس بـ "الامتلاء" ينبثق من الداخل أو يفرض نفسه على الإطار المحايث الذي شيده الإنسان الحديث لإدارة عالمه. وهذا يشير إلى أن الإطار المحايث ليس مكتفياً بذاته تماماً؛ إذ رغم الجهود المبذولة لحصر المعنى داخل منظور طبيعي بحت، فإن التجارب الجمالية والروحية تواصل اختراق هذا الإطار، مما يزعزع الثقة العلمانية في كفايته المطلقة (Smith, 2014, p. 12).

في المقابل، لا يمكن للمؤمنين في العصر ما بعد الحداثي أن يعزلوا أنفسهم عن الضغوط المتعارضة. فكما يشعر العلماني بجاذبية التعالي، فإن المنتمين إلى الإيمان الديني في الزمن المعاصر لا يمكنهم تفادي السرديات

الإطار المحايث في فلسفة تشارلز..... العايب حسين زين العابدين وهرياجي حميدة

الفكرية المتنافسة. إن صعود علم النفس التطوري والنزعة الفردانية التعبيرية - كإطارين مهيمنين في الفكر الحديث - يجعل الإيمان في حالة اختبار دائم، إذ يُعاد النظر في المسلمات الدينية ضمن بيئة فكرية تتبنى المحايثة كأساس للمعرفة والوجود. ونتيجةً لذلك، يصبح التصديق غير المشكوك فيه أكثر صعوبة، حيث تتطلب المحافظة على الإيمان جهوداً واعية في مواجهة تأويلات علمانية متزايدة النفوذ.

من هذا المنظور، يصور تايلور الحداثة على أنها فضاء للصراع المستمر بين المحايثة والتعالّي، بدلاً من كونه انتقالاً حاسماً نحو رؤية عالمية متماسكة. فالعلمانيون يواجهون لحظات تعكس هشاشة المحايثة، بينما يجد المؤمنون أنفسهم في مواجهة تحديات فكرية تهدد سردياتهم الوجودية. وفي ظل هذه التوترات، ينجح "قلة قليلة من الأفراد" في تحييد هذه الضغوط بالكامل، معتصمين في ما يسميه تايلور مجازياً بـ "غرفة الذعر" - وهو فضاء معزول يحاول فيه الإيمان أن يظل بمنأى عن التأثيرات المتعددة للعصر الحديث. إلا أن الأغلبية تعيش في فضاء حيث الإيمان واللاإيمان ليسا حالات ثابتة، بل توترات متواصلة، تتشكل من خلال الطابع التعددي والمُساءل للمشهد الفكري في زمن العلمنة.

ثالثاً / الإنسانية المكتفية بذاتها

لأول مرة في التاريخ، ظهر شكل من الإنسانية المكتفية بذاتها كأفق فكري متاح على نطاق واسع، مما يمثل قطيعة جذرية مع المجتمعات السابقة. فعلى عكس الحضارات القديمة، حيث كان الغرض الإنساني متشابكاً بعمق مع غايات متسامية (التعالّي) أو نظام كوني أعلى، فإن هذا الشكل الجديد من الإنسانية لا يعترف بأي غاية نهائية تتجاوز ازدهار الإنسان ذاته. إنه يتموضع بالكامل داخل أفق المحايث رافضاً أي ولاء لمبادئ أو حقائق تتجاوز المجال المادي والإنساني (Taylor, 2007, p. 18).

يشير هذا التحول إلى تغيير جوهري في البنية الأخلاقية والوجودية للحداثة. ففي المجتمعات ما قبل الحديثة، حتى الرؤى الأخلاقية التي تتمحور حول الإنسان كانت غالباً منغرسه داخل سرديات ميتافيزيقية أو دينية أوسع. إلا أنه مع صعود

الإنسانية الحصرية، لم يعد مفهوم الازدهار مرتبطاً بالإرادة الإلهية، أو العدالة الكونية، أو الغايات الميتافيزيقية—بل أصبح مرجعياً لذاته ومكتفياً بتبرير نفسه من داخله. ويمثل هذا لحظة غير مسبقة في التاريخ، حيث لم تعد المعاني والأخلاقيات تستند إلى أي إحالة إلى ما يتجاوز التجربة البشرية المحضة (McKenzie, 2017, p. 52).

ومع ذلك، فإن هذه الاستقلالية الجديدة ليست خالية من التوترات. فغياب الأساس المتعالي يثير تساؤلات حول مدى استقرار وعمق هذا الشكل من الإنسانية. فهل يمكن لازدهار الإنسان أن يستمر كغاية نهائية دون إحالة إلى ما يتجاوز الأفق المحايث؟ أم أن هذا الازدهار ذاته يظل هشاً وقابلاً للانهايار؟ من هنا، يدفعنا تحليل تايلور إلى تأمل أعمق في تبعات عالم أصبحت فيه الإنسانية المكتفية بذاتها ليست مجرد إمكانية، بل نموذجاً مهيماً.

في الإطار المسيحي التقليدي، كان الإنسان يُنظر إليه على أنه مدعوٌ للمشاركة في محبة الله (*agape*) بطريقة تتجاوز العلاقات البشرية المعتادة. هذه الرؤية تفترض وجود نداء فوق بشري يستلزم عملية تحويلية عميقة تقود الإنسان إلى حالة تتجاوز الوجود المحايث المحض. ولم يكن مفهوم الازدهار هنا قائماً على الاستقلالية الفردية، بل على الاستجابة للنعمة الإلهية والانخراط في علاقة تتجاوز المنفعة المتبادلة (McKenzie, 2017, p. 32). ويقارن تايلور هذا التصور برؤية محاثة حديثة بدأت تترسخ تدريجياً، حيث لم يعد الازدهار البشري مرتبطاً بالتعالي، بل أصبح يتمثل في السعي وراء السعادة داخل العالم المادي. في هذا النموذج الجديد، يُنظر إلى تحقيق الرفاهية على أنه نتيجة للحرية الشخصية، والأمان، والتعاون الاجتماعي. في بداياته، استند هذا التصور إلى رؤية ربوبية (*Deist*) أو عناية إلهية (*Providentialist*) والتي أبقت على وجود مرجعية إلهية عليا، وإن كانت بعيدة. لكن مع مرور الوقت، تلاشت هذه المرجعية تدريجياً، ليحل محلها تصورات إلحادية أو لأدرية، اعتبرت الطموح إلى التحول الروحي الأعلى مجرد وهم. ويُبرز هذا رؤية تايلور للعلمنة بوصفها تحولاً في بنية المعنى ذاتها، وليس مجرد انحسار في الاعتقاد الديني. إنها انتقال من تصوّر الازدهار

الإطار المحايث في فلسفة تشارلز..... العايب حسين زين العايبين وهرياجي حميدة

على أنه عملية تحويلية تستند إلى النعمة الإلهية، إلى رؤية تعتمد على تحقيق الاكتفاء الذاتي والرفاهية داخل هذا العالم المحايث (Taylor, 2007, p. 233).

وهنا يمكننا أن نكشف عن المستويات الدلالية والمفاهيمية التي يعطيها تايلور لمفهوم العلمنة عكس سابقه؛ إذ يناقش نظرية العلمنة من خلال إبراز أبعادها المتعددة بدلاً من اختزالها إلى ظاهرة واحدة، ويميز بين ثلاثة مستويات لها: العلمنة 1، التي تشير إلى تراجع دور الدين في المؤسسات العامة؛ العلمنة 2، التي تتعلق بانخفاض مستويات الإيمان والممارسة الدينية؛ والعلمنة 3، التي تتناول تحول طبيعة الإيمان نفسه وكيفية فهمه في العالم الحديث. ورغم أن هذه المستويات قد تتداخل، إلا أن تايلور يرى أنها متميزة عن بعضها البعض ولا ينبغي اعتبارها مترابطة بالضرورة (McKenzie, 2017, p. 35).

أحد المحاور الأساسية في طرح تايلور هو أن ظهور بديل إنساني علماني للإيمان الديني (العلمنة 3) يمهّد الطريق لتراجع الاعتقاد والممارسة الدينية (العلمنة 2). إذ دون وجود رؤية عالمية بديلة، لم يكن من الممكن أن يصبح عدم الإيمان خياراً متاحاً على نطاق واسع في المجتمع. يتحدى طرح تايلور النماذج التبسيطية والخطية للعلمنة التي تفترض انحداً مباشراً ولا رجعة فيه للدين. وبدلاً من ذلك، يقدم رؤية أكثر تعقيداً وتعددية، حيث يتعايش الإيمان واللاإيمان ويتأثران بالأطر الثقافية والفكرية المتغيرة للحداثة. من خلال تسليطه الضوء على العلمنة 3، ينقل تايلور النقاش من مجرد قياس انخفاض عدد المنتمين إلى الدين إلى التركيز على كيفية إعادة تشكيل تجربة الإيمان واللاإيمان في المجتمعات الحديثة (Taylor, 2007, p. 768).

في هذا السياق، فإن ما يحاول تشارلز تايلور أن يقدمه من جهة أخرى، هو فهم متعدد الأبعاد للمحاياة بوصفها عنصراً أساسياً في تعريف الدين. فهو لا يختزل الدين في مجرد الإيمان بقدرة متعالية، بل يرى أن التعالي يجب أن يفهم في ثلاثة أبعاد مترابطة. البعد الأول يتعلق بالإيمان بقوة عليا تتجاوز النظام المحايث، فقد شكل هذا الإيمان المجتمعات تاريخياً، وانحساره يشكل جزءاً من عملية العلمنة (كما يظهر في العلمنة 1 و2). أما البعد الثاني فيشير كما سبق أن

طرحنا، إلى أن الدين لا يقتصر على الإيمان، بل يوفر إمكانية الوصول إلى خير أعلى يتجاوز الازدهار الإنساني. أما البعد الثالث، فيرتبط برؤية الحياة الإنسانية على أنها تتجاوز حدودها الطبيعية بين الولادة والموت، مما يفترض إطاراً أخروياً متعالياً بدلاً من الوجود المحدود داخل نطاق هذا العالم (Taylor, 2007, p. 20).

لقد أدت الإنسانية المكتفية بذاتها التي نشأت عن الفهم الحصري المحايث للعالم إلى تعقيد التحولات الدينية في الحداثة المتأخرة، ويشدد تايلور إلى أن تراجع المسيحية لا يؤدي بالضرورة إلى رؤية علمانية محضة. بل على العكس، قد يدفع هذا التحول الأفراد نحو أطرٍ روحية بديلة، بما في ذلك المعتقدات المرتبطة بالطبيعة أو التقاليد الدينية غير المسيحية. ويتحدى ذلك أطروحة العلمنة التقليدية التي تفترض أن الحداثة تؤدي حتماً إلى اضمحلال الإيمان الديني. وبدلاً من ذلك، ما يظهر هو إعادة تشكيل للروحانية، حيث يسعى الأفراد إلى إيجاد المعنى خارج المؤسسات المسيحية التقليدية، مع استمرار انخراطهم في أبعاد روحية أو متعالية (التعالى) (Mouzelis, 2012, p. 20).

أخيراً، يذهب التحليل المنحاز إلى الإطار المحايث واكتفاء الإذ سانية بذاتها في نفس الـ سياق إلى أن الحركات الدينية الجديدة والتعبيرات الروحية المعاصرة مجرد ظواهر سطحية أو مؤقتة. ففي عالم مَعُولم، تستمر هذه الأشكال من الروحانية في التطور، مستجيبةً للهواجس الوجودية والأخلاقية التي قد لا تتمكن الأديان المؤسسة سانية التقليدية من معالجتها بشكل كافٍ. وهذا يدفع شير إلى أن الحداثة لا تُنتج م شهداً دينياً علمانياً بالكامل، بل تخلق فضاءً تعديداً وديناميكياً تتفاعل فيه المعتقدات المختلفة وتتغير باستمرار. وبدلاً من النظر إلى العلمنة على أنها عملية خطية للتراجع الديني، يوضح المقطع أن من الأفضل فهمها على أنها عملية معقدة من إعادة التفاوض حول الهوية الدينية والروحانية في المجتمع المعاصر (Taylor, 2007, p. 618).

خاتمة:

من خلال استعراض مفهوم العلمنة من جوانب متعددة والإطار المحايث الذي ينشأ من فهم محدد إلى العلمنة ومخرجاتها، يمكننا القول بأن تحليل تايلور يُبرز كيف أن العلمنة الحديثة ليست ببساطة غياباً للدين، بل هي صياغة جديدة للعلاقة بين الإنسان والمعنى في عالم لم يعد يحتكم إلى التعالي كمرجعية مطلقة. ولذلك، يُعد مفهوم "الإطار المحايث" مفتاحاً أساسياً لفهم تحولات الهوية الحديثة، والأخلاق الفردية، والتوق الروحي في ظل العلمنة. وعلى هذا الأساس نصل من بحثنا هذا إلى النتائج التالية:

أ- يقدم تايلور عبر تحليل الإطار المحايث مفهومًا معقدًا ولكنه محوري لفهم الطبيعة الحديثة للعالم، حيث بدأ البشر في النظر إلى العالم في هذا السياق باعتباره مكانًا مكتفياً بذاته، لا يحتاج إلى تدخل خارجي من قوى إلهية أو روحية لتفسيره. هذا التحول لم يكن مجرد تغيير في تفسير الكون، بل كان بداية لتحول عميق في طبيعة الإيمان والعلاقة مع التعالي. في السابق، كانت المجتمعات تعيش في إطار ثقافي يفرض فيها الإيمان بالله أو الكائنات الروحية كجزء لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي. أما في العصر الحديث، فإن الإيمان أصبح خياراً فردياً يتطلب اتخاذ قرار واع ضمن سياق ثقافي ومعرفي معقد.

ب- إن التحول العميق الذي مس العالم الغربي الحديث ليس مجرد تراجع في العنصر الديني، بل هو إعادة تشكيل للكيفية التي يعيش بها الإيمان في العصر المعاصر. لقد أصبح الإيمان أمراً يمر عبر الشروط الجديدة التي تفرضها العلمنة، والتي تُقيد الدين بمفاهيم الفردية والتعددية، وتُعيد تشكيله ليصبح قراراً شخصياً يرتبط بالمجال الداخلي للفرد.

ج- إن هذا التحول من الإيمان التقليدي إلى الإيمان كاختيار شخصي يعكس بوضوح فكرة الذات المحصنة، التي هي نتاج الفكر التنويري والعقلانية الحديثة التي عززت من قدرة الإنسان على عزل ذاته عن القوى الروحية والتدخلات الخارجية. لذلك، أصبح الفرد المعاصر أكثر استقلالية ووعياً في

تشكيل معتقداته، معترفاً بوجود بدائل كثيرة ومتنوعة للإيمان، وهو ما يعكس التحولات الكبرى التي شهدتها العالم الفكري والثقافي.

د- في ظل وجود الإطار المحايث الذي جعل الإنسانية مكتفية على ذاتها، لا تزال هناك حاجة ملحة للتفكير في المسائل الروحية والمفاهيم المتعالية، لكنها لا تتخذ مكانها في الساحة العامة أو الفضاء الاجتماعي بالطريقة التي كانت عليها في العصور السابقة. ما يميز الإطار المحايث هو أنه لا يلغي الدين، بل يعيد تشكيله ويجعله متاحاً فقط للذين يرغبون في اختياره بحرية كاملة. هذه الحرية في اختيار الإيمان تعتبر إحدى السمات البارزة لعصر الحداثة، الذي لا يشجع على التعالي كأمر مفروغ منه، بل كاختيار حر في مواجهة التعددية الثقافية والفكرية. من خلال هذا التحليل، يمكننا أن نستنتج أن الإطار المحايث كما يفهمه تشارلز تايلور لا يمثل تهديداً للدين، بل يعكس تحولاً ثقافياً عميقاً في كيفية تعامل الأفراد مع الروحانية، وكيفية تشكيل المعنى في عالم أصبح أكثر استقلالية. يظل الإنسان في العصر الحديث في بحث مستمر عن المعنى، مع إدراكه للخيارات المتاحة أمامه ومواجهة الشكوك التي تنشأ من تعدد العوالم الثقافية والعقائدية. وبالتالي، فإن الإطار المحايث يُعد إطاراً فكرياً حيوياً لفهم تحديات الإيمان في العصر الحديث، وكيفية تأثيره في الهوية، الأخلاق، والوجود الروحي في سياق الحداثة.

قائمة المراجع:

- Hughey, M. W. (1979). The idea of secularization in the works of Max Weber: A theoretical outline. *Qualitative Sociology*, 2(1), 85–111.
- McKenzie, G. (2017). *Interpreting Charles Taylor's Social Theory on Religion A Comparative Study*, New York Springer Publishing
- Mouzelis. (2012). Modernity and the secularization debate. *Sociology*, 46(2).
- Smith. (2014). *How (not) to be secular: Reading Charles Taylor*. Grand Rapids, MI: Wm. B. Eerdmans Publishing Co.
- Taylor, C. (2007). *Secular Age*. Cambridge, MA: Belknap Press of Harvard University Press.
- بيلا، روبرت. (2019). *تنويعات العلمانية في عصر العلماني، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت*
- تايلور، تشارلز. (2020). *عصر علماني، جداول للنشر والترجمة، بيروت*